ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

النخبة الأندلسية المثقفة في خدمة الخلافة الموحدية

٥٤١ – ٦٠٩هـ/ ١١٤٦ – ١٢١٢م

د. محمد العمراني

أستاذ التاريخ الوسيط

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

بعدما تمكن الموحدون من الوصول إلى السلطة في المغرب الأقصى سنة (٥٤١هـ/١١٤٧م) وتوحيد الغرب الإسلامي، فكر الجهاز المسؤول في الدولة الموحدية في ضرورة إعادة هيكلة المجال الجيوسياسي للدولة إداريًا واقتصاديًا وفق تصور أيديولوجي يتماشى مع مبادئ الدعوة التومرتية التي روج لها الزعيم المذهبي للحركة الموحدية محمد بن تومرت. لذلك كان من الضروري على الجهاز الموحدي الحاكم أن يفتح قنوات الاتصال مع مختلف النخب وخاصةً الفئة المثقفة التي ستتولى مناصب المسؤولية في دولة الموحدين. في هذا السياق يأتي هذا المقال الذي يعالج موضوع النخبة الأندلسية المثقفة في علاقتها مع الخلافة الموحدية والذي يتوخى رصد العلاقات المتباينة لهذه النخبة مع النظام الموحدي، وفي الوقت ذاته تتبع مسارها حسب فترات حكم الخلفاء الأربعة الأوائل للدولة الموحدية. وهي الفترة التي تمتد من (٥٤١هـ/١١٤٧) عندما أصبحت مراكش عاصمة لدولتهم وإلى حدود هزيمة الموحدين في معركة العقاب سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م) التي أرخت لمرحلة تراجع المد الإسلامي في الأندلس. لذلك تعتبر الفترة قيد الدرس جد مواتية لتحليل مواقف النخبة المثقفة الأندلسية في علاقتها مع النظام الموحدي وفي الوقت نفسه تتبع الأساليب التي وظفها هذا النظام من أجل استقطاب هذه النخبة مع تفسير سياقات كل حالة من خلال نماذج محددة بالاعتماد على مادة مصدرية وسيطية خاصةً منها كتب التراجم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٥ أبريل ٢٠١٥

تاريخ قبول النشر: ١٩ أغسطس ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

تاريخ الأندلس، العصر الموحدي، المجتمع الأندلسي، النخب المثقفة، المثقفين الأندلسيين

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041880

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد العمراني. "النخبة الأندلسية المثقفة في خدمة الخلافة الموحدية (٥٤١هـ-٦٠٩هـ/١١٤٦م -١٢١٢م)".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص١٠٨ – ١١٣.

مُقَدِّمَةٌ

نوظف النخبة المثقفة في هذا المقال بمعنى الفئة التي كان لها رصيد ثقافي، وكان لها حظ وافر من المعرفة السائدة خلال العصر الموحدي، ونقصد بذلك إلمامها باللغة العربية، والأدب شعرًا ونثرًا، والفقه وأصوله، وكذا علم الكلام والحكمة والتصوف. وقد مكنتنا كتب التراجم والطبقات من الكشف عن نماذج مختلفة لهذه الشريحة الاجتماعية وذلك انطلاقًا من موقف تعاملها مع الجهاز الإداري والسياسي الموحدي مركزيًا ومحليًا. وقد ساهم الوجود الموحدي في الأندلس ما بين (٥٤١هـ-٦٠٩هـ) في خلق علاقات متباينة مع أفراد هذه الفئة كل من موقعه الخاص. ويمكن تتبع تجليات هذه العلاقات ما بين الخلافة الموحدية من جهة وبين هذه النخبة المثقفة من جهة أخرى من خلال المهام والوظائف التي أسندت إليها. وإذا كانت بعض الوظائف قد عرضت على البعض من هذه النخبة، فإن ما سجلته لنا الإشارات المصدرية هو أن غالبية المثقفين الأندلسيين هي من كانت تتهافت من أجل الحصول عليها تقربًا من فضاء الحكم والسلطة من جهة وخدمة للخلافة الموحدية من جهة أخرى.

ونقصد بهذه الوظائف تلك التي كانت مرتبطة بالسلطة مركزية كانت أو محلية، والتي منحت لمتقلديها هيبة وبوأتهم مكانة متميزة داخل المجتمع الموحدي. ولم تنحصر هذه المهام في وظيفة واحدة، بل تعدتها إلى مزاولة وظائف أخرى كالكتابة للخلفاء والأمراء من السادة بني عبد المؤمن، أو الإشراف على تدريس الأمراء، أو المشاركة في مجالس الخليفة، وكذا القيام بالخطبة وقراءة الشعر في المناسبات الرسمية والاحتفالات، وكذا أثناء العودة بالانتصارات في المعارك والحروب. وسواء كانت مزاولة هذه الوظائف من اختيار هذه النخب المثقفة، أم أنها فرضت عليها، فإنه في جميع الحالات قد حولت معظم أصحابها إلى شخصيات انتهازية ووصولية تهافتت أكثر للتقرب من الخليفة، وهذا ما كان يؤدي بهذه الفئة من رجالات الأندلس أن تدخل في مساومات مع نخب أخرى بالبلاط الموحدي، إن لم نقل أنها كانت تدخل في صراعات معها ليفتح الباب على مصراعيه أمام لعبة الدسائس والمؤامرات.

النخبة الأندلسية المثقفة

ومن بين الشخصيات الأندلسية المثقفة التي حظيت باهتمام البلاط الموحدي، نشير إلى "**محمد بن إبراهيم الأنصاري**"، والمعروف بـ "ابن الفخار" من أهل "مالقة"، ويلقب بـ "الحافظ الإمام"[١]، إذ استطاع بفضل مكانته الفكرية في مجال الحديث والفقه أن يجذب اهتمام السلطة المركزية الموحدية إليه حيث استدعاه المنصور إلى حضرته بمراكش عندما تولى السلطة سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م).[٢] وما يلفت الانتباه في هذا الصدد؛ أن اهتمام الموحدين بهذه الشخصية جاء في سن متأخرة لهذا العالم الأندلسي حيث كان عمره آنذاك تسعة وستون سنة، أي عشر سنوات قبل وفاته التي تزامنت مع الفترات الأخيرة من حكم الخليفة يعقوب المنصور وذلك سنة (٥٩٠هـ/١١٩٤م).[٣] وإذا كانت سيرة هذا الفقيه الأندلسي لا تشير إلى أي استفادة له من تقريب المنصور إليه، فإن "محمد بن عبد العزيز التجيبي" قد استفاد من موقعه في البلاط الموحدي حيث كان كاتبا للخليفة المنصور، فقال عنه صاحب أعلام مالقة أنه كان «يظهر له في كتبه من البلاغة والفصاحة ما يدل على معرفته وحفظه»[٤]، وزاد في السياق نفسه أنه كان «كاتبًا بليغًا شاعرًا مؤثرًا عالي الهمة معظمًا عند الملوك مقربًا لديهم»[٥]. فهذه المكانة التي كان يتمتع بها هذا الأديب الأندلسي تم استغلالها للقيام بوساطات وقضاء الأغراض والمنافع للأهل والأصحاب، وفي هذا الصدد تذكر إحدى الروايات المصدرية أنه بفضله انتفع الناس لقضاء مآربهم، ونالوها عندما كانوا يتوجهون إلى عاصمة الدولة الموحدية مراكش.[٦]

وإذا كان البعض قد استغل موقعه القريب من رجالات الحكم الموحدي لتلبية طموحاته وأغراضه، فإن البعض الآخر لم يكن يسعى إلى تحقيق هذا الطموح، ولم يكن يهدف إلى تقلد مناصب، وذلك لما كان يتمتع به من نفوذ رمزي داخل المجتمع الأندلسي، كما هو الحال بالنسبة لـ "**محمد بن أبي بكر الأنصاري**"، المكنى بأبي عبد الله والذي قيل عنه أنه «كان من أهل الفضل والعدل والدين وكان أمين قيسارية مالقة مقصودًا من البلاد، مؤتمنًا على الودائع»[٧]، ولعل ذلك ما جعل الملوك والسادة بني عبد المؤمن يقصدونه في أغراضهم[٨].

ويبقى منصب كاتب لدى الخلفاء والأمراء الموحدين هدفا تسعى إليه معظم الفئات المثقفة الأندلسية التي تثقن اللغة وتتميز بالفصاحة والإلمام بالأدب، تلك الميزات هي ما اتصفت به شخصية "**عبد الله بن علي ابن أبي العباس**" المتوفى سنة ٥٦٢هـ[٩]، والذي قالت عنه إحدى كتب التراجم «كان من جلة الأدباء وعلية الفصحاء والخطباء معدودًا في الرؤساء من أهل مالقة»[١٠]، وتضيف هذه الرواية كذلك بأن «مرتبته في المعارف مشهورة وآدابه مدونة مسطورة»[١١]، كما كان «جليل المقدار عالي الهمة رفيع القدر»[١٢]. وقيل بأنه «فقيه ماهر وأديب خطيب شاعر»[١٣]. لا شك أن هذه المواصفات هي التي جعلته محط أنظار الجهات المسؤولة للتقرب منه وأن تستقطبه إلى صفها، فحظي عندها بمنصب الكتابة للخليفتين "عبد المؤمن" و"أبي يعقوب يوسف" فكان «مقربًا لديهم يباهون به في مجالسهم، ويشاورونه في أمورهم».[١٤]

لقد تباينت مواقع النخبة الأندلسية المثقفة من النظام الموحدي حسب الأشخاص، وحسب مزاج الخلفاء، وكذا الفترات الزمنية فهناك من استطاع الوصول إلى مكانة هامة عند السلطة الموحدية، كما هو حال الحافظ "أبي بكر بن الجد"، الذي قيل عنه في كتاب "المغرب في حلى المغرب".[١٥] «أنه كان أعجوبة في سرعة ما يحفظه، وبلغ به العلم إلى مرتبة علية»[١٦]، ولعل هذه المكانة العلمية والفكرية التي كان يتميز بها هذا الفقيه هي ما أهلته ليصبح شخصية محترمة، ليس فقط داخل المجتمع الإشبيلي، وإنما نال هذه المكانة أيضًا عند الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لدرجة أن هذا الخليفة الموحدي كان ينزل له عن فرسه إذا ما خرج للقائه وذلك احترامًا وتقديرًا له.[١٧] وإذا كانت المؤهلات الفكرية والأدبية لبعض النخب الأندلسية هي ما دفعت بالمسؤولين الموحدين التقرب منهم، إما لاستشارتهم أو لتوظيفهم في البلاط الموحدي، فإن البعض الآخر قد دفعت بهم الظروف للوصول إلى هذه المرتبة. وهذا فعلاً ما حدث لـ "**أبي عبد الله محمد بن عياش**" الذي كان في خدمة "أبي حفص الرشيد بن يوسف" قبل أن يقوم بالثورة على أخيه الخليفة "يعقوب المنصور". غير أنه بعد قيام هذه الثورة وإعدام "الرشيد" بدأت عملية البحث عن أصحابه فكان "ابن عياش" من جملتهم، وهذا ما اضطره إلى الهروب والاختفاء، فعانى كثيرًا وأراد أن يجعل حدا لهذه الأزمة من خلال نظمه

لأبيات شعرية، فوقف عليها الخليفة يعقوب المنصور وأثرت فيه فقرر أن يعينه كاتبًا له،[١٨] وقد تولى هذا المنصب نفسه خلال فترة حكم الخليفة "محمد الناصر".[١٩]

لم يتردد الموحدون في استمالة النخب المثقفة الأندلسية وإغداق الأموال عليها، وفي هذا الصدد نشير إلى "**المنذر بن الرضى الرعيني**" من أهل بسطة، الذي اتصل بالموحدين في بداية حكمهم «فاعتنوا به وأقطعوه إقطاعات بمالقة»[٢٠]. ويظهر أن الموحدين قد أعطوا عناية كبيرة للنخب التي لها امتدادات عائلية معروفة داخل الأندلس، فما كانوا ليمنحوا هذا الأديب ما منحوه إياه من الأراضي إلا "لحسبه وأدبه" على حد قول ابن الزبير في صلته.[٢١] لقد قام الموحدون بتقريب العلماء والاهتمام بهم من خلال منحهم الأموال والهبات، فهذا هو شأن "**نجبة بن يحيى بن خلف الرعيني**" المتوفى عام (٥٩١هـ/١١٩٥م)، والذي قال عنه صاحب "صلة الصلة" بأن كان له «صيت عظيم ووجاهة عند ملوك وقته»[٢٢]. ويتبين من سياق نص "ابن الزبير" أن هذا العالم لم تكن غايته في التقرب من السلطان وفي الحصول على الأموال، إلا بغرض منحها كمساعدة لطلبة العلم بإشبيلية حتى يتمكنوا من تجاوز ضائقتهم المالية[٢٣].

ومن بين النخب الأندلسية التي تمكنت من الوصول إلى البلاط الموحدي نجد "**عبد الله بن عبد الرحمان**" من أهل وادي "آش" والمتوفى" سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م)، فقد كان «كاتبًا مجيدًا جليل المقدار، عالي الهمة مشهور الجلالة، مشكور المكان بارع الخط أديبًا شاعرًا، عارفًا بالعدد»[٢٤]، وهي مؤهلات علمية وفكرية كانت كافية لاختياره كاتبًا للخليفة عبد المؤمن.[٢٥] ولم تقتصر استمالة النخب الأندلسية من قبل السلطة المركزية الموحدية على فئة الكتاب فقط، بل قربوا إليهم فقهاء الحديث، كما هو الشأن بالنسبة لـ "**عبد الله بن محمد بن ذي النون الحجي**" المتوفى سنة (٥٩١هـ/١١٩٥م) من أعيان ألمرية[٢٦]، والذي يقول عنه العزفي نقلاً عن ابن الزبير أنه كان «من أركان العلم والدين، جمع الزهد والعفاف والورع والنزاهة مع الكفاف ودون الكفاف»[٢٧]، فلا شك أن هذه المواصفات كانت قادرة على إجبار السلطة المركزية الموحدية على عهد المنصور لاستقطاب هذا الفقيه الأندلسي من خلال تعيينه في منصب إسماع الحديث في المسجد الأعظم في مراكش.[٢٨]

إن الصيغة التي عبر بها ابن الزبير عن تقريب "ابن ذي النون" إلى الخليفة الموحدي "يعقوب المنصور" تدل على أن هذا الفقيه لم يكن راغبًا في الالتحاق بدائرة نفوذ السلطة، خصوصًا وأن هذا العالم يعتبر من رجالات التصوف والزهد، ولم يكن يطمح إلى تجميع الثروة وتكديسها. إن ما يؤكد ما ذهبنا إليه أنه على الرغم من كون المنصور قد أنعم عليه بالمال والسكن والملابس الفاخرة، فإنه لم يستفد منها، كما لم يصرف تلك الأموال، وإنما تبرع بها على أصهاره وضعفاء من قرابته وأهله[٢٩]. بل إن إعلانه عن انقطاعه عن مجلس السلطان معتذرًا بكبر سنه، يدل هذا على أن هذا الفقيه الأندلسي يشكل حالة خاصة من بين الحالات القليلة التي لم تتهافت على كرسي الزعامة وإعلان التقرب من السلطة،[٣٠] طمعًا في الحصول على امتيازات كبيرة أو حظوة لدى الخليفة.

وكان ميل بعض النخب الأندلسية إلى اتجاه مذهبي معين، دافعًا وراء احتضان السلطة لهم، ذلك ما نجده مع القاضي "**عبد الله بن سليمان الأنصاري**" من شرق الأندلس، والذي قال عنه صاحب صلة الصلة أنه «كان فقيهًا جليلاً أصوليًا نحويًا، كاتبًا أديبًا، شاعرًا متفننا في العلوم، ورعا دينا حافظا فاضلاً».[٣١] غير أنه في تقديرنا يبقى هناك دافع أقوى أدى بالخليفة المنصور إلى الميول إليه، ألا وهو انتصار هذا الفقيه لرأي الظاهرية[٣٢]، فكان هذا حافزًا للخليفة الموحدي لكي يكلفه بالإشراف على تدريس الناصر وإخوته[٣٣]. فكانت له بذلك مكانة متميزة عند الموحدين عبر عنها "ابن الزبير" في قوله أنه: «كان مشهورًا بالفضل معظمًا عند الملوك، معلوم القدر لديهم»[٣٤]. فهذه المرتبة هي ما جعلته يخطب في مجالس الأمراء، وأثناء التجمعات، وذلك بفضل بلاغته وفصاحته مما دفع أمراء الموحدين إلى الاهتمام به كثيرًا.[٣٥]

ومن بين العلماء الذين حضروا مجلس الخليفة المنصور، نشير إلى "**ابن الفرس**" المتوفى سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م)[٣٦]. فرغم أن الإشارة المصدرية لا تسمح لنا بتحديد درجة علاقته بالسلطة الموحدية، غير أن ما قدمته من خبر عن مراسيم تشييع جنازته يفيدنا بكون هذا الفقيه لم تكن له أطماع أو رغبة في تراكم الثروة، ولا تحدوه أي تطلعات نحو احتلال مراكز سلطوية، وهذا ما يؤكده صاحب "الذيل والتكملة" فيما يلي: «وشهد جنازته عالم لا يحصون كثرة وكسر الناس نعشه وتقسموه تبركًا به».[٣٧] إنه مشهد جاء في كثير من الأحيان في سياق كتب التراجم والمناقب بالنسبة لأعلام كثيرة من رجالات الزهد والتصوف.

وإذا كانت النخبة الأندلسية ممن اقتربت من السلطة الموحدية تهدف في معظمها إلى الحصول على امتيازات أو تجميع الثروة، من خلال قيامها بوظيفة ما داخل البلاط الموحدي أو خارجه، فإن فئة من هذه النخبة قد سطرت أهدافها بوضوح عندما فكرت في الارتباط برجالات السلطة والحكم. ويكون هذا التقرب في شكل لقاء مباشر يتم خلاله الإعلان عن الهدف من الزيارة، أو من خلال تقديم مؤلف يتوخى منه صاحبه أن يجازى عنه بأموال، أو الإنعام عليه بظهير، أو حماية ممتلكاته وثروته. ولعل هذه الحالات قد انتشرت بشكل كبير في بداية الحكم الموحدي قبل وعند دخولهم "مراكش" عام (٥٤١هـ/١١٤٧م).

وفي هذا الإطار نشير إلى "**أبي الحسن علي محمد بن خليد اللخمي الإشبيلي**" والمتوفى عام (٥٦٧هـ/١١٧١م)، والذي يتحدث

عنه ابن صاحب الصلاة وينعته بـ "الفقيه الخطيب أبو الحسن الإشبيلي" ويشير إلى أنه كانت له مكانة متميزة في البلاط الموحدي لدرجة أنه صار "عند الخليفة في العلوم والمذاكرة أول داخل وآخر خارج...دام على علوّ مكانته عند الخليفة رضي الله عنه فأسهمه الاسهام والديار، وأناله الإكرام والأوطار... ولم يزل على ما ذكرته، مدة أيام الخلافة إلى أن ولي أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه فمشاه على منزلته، ووالاه جميل رتبته..."[٣٨]. وكان هذا الفقيه مهتمًا بعلم الكلام كما كان خطيبًا بليغًا وحافظًا للفقه[٣٩]. فقد ألف كتابًا سماه "المعراج" منحه هدية إلى الخليفة عبد المؤمن وهو محاصر لـ "أغمات وريكة" في جمادى الأولى سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م).[٤٠]

لا يمكن للخلافة الموحدية أن تتغافل عن مثل هذه الخطوة التي تحمل عدة دلالات رمزية، في وقت كان فيه الموحدون بأمس الحاجة إلى تلميع صورتهم، واكتساب مشروعية حركتهم، إن لم نقل دولتهم، خصوصا وهم على أبواب إسقاط مراكش عاصمة المرابطين. لقد كان الفقيه الأندلسي على وعي تام بالنسبة لهذه الخطوة، التي مكنته من تبوء مكانة هامة وازداد حظوة عند الخليفة "عبد المؤمن"، وكرَّم وفادته فقام بترقيته إلى مرتبة عليا نال بسببها "دنيا عريضة وجاهًا مديدًا" على حد قول "ابن عبد الملك".[٤١] ونشير في هذا الصدد كذلك إلى "**علي بن أحمد**" المعروف بـ "**أبي الحسن بن القابلة**" أخ "أبو بكر بن القابلة"، الثائر على المرابطين عام ٥٣٩هـ[٤٢]، فقد سافر إلى المغرب بهدف التمكن من استرجاع أموال أخيه، غير أنه لم يبلغ مبتغاه بسبب وفاته بمراكش حوالي (٥٦٥-٥٦٦هـ/١١٧٠م)[٤٣]. ونذكر كذلك "**أخيل بن إدريس الرندي**" الكاتب من مدينة رندة[٤٤]، والذي كان تحت طاعة ابن حمدين وبعد ذلك رحل إلى مراكش.[٤٥] وقد كانت أهداف رحلة الرندي واضحة تتمثل في البحث عن وساطة لدى الخليفة عبد المؤمن من أجل استعادة أمواله التي فقدها في الأندلس، فكان "أبو جعفر بن عطية الوزير" وسيطا له في هذه المأمورية، وعلى يديه أعيد ماله «ولم يزل هناك مكرمًا وفي طبقته مقدمًا إلى أن ولي قضاء قرطبة ثم قضاء إشبيلية».[٤٦]

إنه سلوك "براغماتي" واضح لجأت إليه بعض النخب الأندلسية للحصول على مكتسبات جديدة، أو استرجاع ما فقد منها خاصةً خلال المرحلة الانتقالية من "المرابطين إلى الموحدين". إن طبيعة النظام الموحدي، الذي اعتمد على الأسلوب الزجري ضد كل الأطراف التي عارضته، وأسلوب الاستقطاب بالنسبة للنخب الأندلسية أساسًا، يصعب على البعض مقاومة إغراءاته، خصوصًا وأنه يمنح المال والجاه كما هو الحال مع "عبد الملك بن عياش بن فرج القرطبي"، الذي رحل إلى إشبيلية خلال مرحلة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، فتزهد في إحدى رباطات قرى هذه المدينة[٤٧]، غير أن السيطرة الموحدية على إشبيلية أدت بهذا الأديب الزاهد أن يشتغل بالكتابة عند عامل الموحدين "أبي إسحاق براز المسوفي"، فتقلدها على كره وتقية على نفسه. إن هذه الوظيفة جعلته مقربًا للخلفاء فأصبح كاتبًا وأحد خدام النظام حيث كتب للخليفة عبد المؤمن، وكذا لأبنه يوسف عندما كان واليًا على الحاضرة الموحدية "إشبيلية" في الأندلس.[٤٨]

فهذا الاقتراب من السلطة مكَّنه من تسلق درجات الرقي الاجتماعي فـ «نال دنيا عريضة، وكانت له منهم منزلة جليلة وكان ممدحا» على حد تعبير صاحب الذيل والتكملة[٤٩]. إنه تحول جذري من التصوف والزهد إلى البذخ والثروة والجاه، ففي هذه المفارقة تعبير صارخ عن صعوبة مقاومة نظام حل بكل ثقله على البلاد الأندلسية من أجل كسب أتباع من النخبة ستعمل على إضفاء المشروعية على وجودهم بشبه الجزيرة. إن صعوبة مقاومة هذا النظام وقوته تتجلى بشكل واضح من خلال إحساس هذا العالم بعقدة الذنب، خصوصًا بعدما ارتد عن طريقته المثلى على رأي صاحب "الذيل والتكملة"[٥٠]، والتي تم التعبير عنها ثلاثة أيام قبل وفاته سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م) عندما نظم البيتين التاليين:

عصيتُ هَوى نَفْسي صغيرا فعندما
رَمتني الليالي بالمَشيب وبالكبر
أطَعْتُ الهوى، عكس القضية ليتني
خلقت كبيرًا وانتقلت إلى الصغر[٥١]

لقد كانت النخب الأندلسية، خاصةً المثقفة منها المتمكنة من دراسة اللغة والآداب محط اهتمام السلطة السياسية الموحدية فتم استقطابها للإشراف على تأديب وتدريس الأمراء. ذلك هو الشأن بالنسبة لـ "**عبد الوالي بن محمد أحمد بن عبد الوالي**" من "بلنسية" والمتوفى سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م)، حيث كان مشرفًا على تأديب أبناء الخليفة "أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن".[٥٢] ونشير في السياق ذاته إلى "**علي بن محمد بن يوسف الفهمي**" من "قرطبة"، والذي كان على إلمام بالقراءات السبع، وبعد متابعة دراسته في مدينتي إشبيلي وغرناطة خلال فترة حكم الخليفة "يوسف بن عبد المؤمن"[٥٣]، انتقل إلى مراكش فقام بتدريس أبناء المنصور، إذ كانت له مكانة هامة استغلها في جمع الأموال حيث راكم ثروة كبيرة خاصةً خلال فترة حكم "المنصور والناصر".[٥٤]

خَاتِمَةٌ

يمكن القول مما سبق؛ أن الجهاز السلطوي الموحدي قد فطن إلى السلوك الانتهازي لشريحة من شرائح المجتمع الأندلسي، وتَنَبَّهَ إلى طموحاتها وأهدافها، فلم يحرمها من تحقيقها خصوصا وأنه بهذا الأسلوب سيتمكن الموحدون من ضمان تبعية الرعية، وخلق التنافس فيما بين السكان، وخاصةً نخبهم التي تهافتت من أجل خدمة النظام. وإذا كان البعض قد استغل موقعه القريب من رجالات الحكم الموحدي لتلبية طموحاته وأغراضه، فإن البعض الآخر لم يكن يسعى إلى تحقيق هذا الطموح، ولم يهدف إلى تقلُّد مناصب سامية أو غيرها، وذلك لِمَا كان يتمتع به من نفوذ رمزي داخل المجتمع الأندلسي.

لقد حقق الموحدون من خلال توظيف أسلوب إغداق الأموال ومنح الامتيازات لبعض النخب على حساب فئات أخرى توازنًا سياسيًا في الأندلس مما جعل بعض الأفراد من هذه النخب يقومون بحفر الدسائس للآخرين بُغْيَةَ التقرب من أعتاب الخلافة ونيل الحظوة والمكانة المرموقة والجاه والنفوذ. إن الموحدين باختيارهم لهذا النهج قد رسّخوا في المجتمع الأندلسي سلوك الانتهازية والطمع والوصولية التي كانت سِمَةً بارزة عند مختلف الشرائح النخبوية تقريبًا في حين لجأ البعض الآخر إلى إتباع السلوك الزهدي والتصوف مبتعدًا قدر الإمكان عن مخالطة السلطة أو التعامل معها.

الهَوامِشُ:

(١) ابن عسكر، أبو عبد الله، وأبو بكر بن خميس، **كتاب أعلام مالقة**، تقديم وتعليق الدكتور عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص. ١١١.

(٢) **أعلام مالقة**، م س، ص.١١١.

(٣) **أعلام مالقة**، م س، ص.١١١.

(٤) **أعلام مالقة**، م س، ص.١٥٥.

(٥) **أعلام مالقة**، م س، ص.١٥٥.

(٦) **أعلام مالقة**، ص. ١٥٥-١٥٦.

(٧) **أعلام مالقة**، م س، ص.١٥٧.

(٨) **أعلام مالقة**، م س، ص.١٥٧.

(٩) **أعلام مالقة**، م س، ص. ٢٢٧.

(١٠) **أعلام مالقة**، م س، ص.٢٢١.

(١١) **أعلام مالقة**، م س، ص. ٢٢١.

(١٢) **أعلام مالقة**، م س، ص. ٢٢١.

(١٣) **أعلام مالقة**، م س، ص. ٢٢١.

(١٤) **أعلام مالقة**، ص٢٢١.

(١٥) ابن سعيد المغربي، **المغرب في حلى المغرب**، ج١، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨، ص.٣٤٣.

(١٦) **المغرب في حلى المغرب**، ج١، م س، ص.٣٤٣.

(١٧) **المغرب في حلى المغرب**، ج١، م س، ص. ٣٤٣.

(١٨) ابن سعيد المغربي، **المغرب في حلى المغرب**، ج٢، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨، ص. ٨٢.

(١٩) **المغرب في حلى المغرب**، ج٢، م س، ص. ٨١-٨٢.

(٢٠) ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم، **كتاب صلة الصلة**، القسم الثالث، تحقيق الدكتور عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ١٩٩٣، ص.٧١.

(٢١) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.٧١.

(٢٢) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.٨٠.

(٢٣) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص. ٨٠.

(٢٤) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١١٨.

(٢٥) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١١٨.

(٢٦) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١١٩.

(٢٧) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٢٣.

(٢٨) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٢٢.

(٢٩) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص. ١٢٢.

(٣٠) يمكن القول انطلاقًا من هذه الإشارة المصدرية وغيرها، أن التقرب من الخلفاء والعمل في القصور لم يكن يعبر دائما عن ارتياح النخبة الأندلسية، فقد كان هذا العمل يأتي استجابة لأوامر عليا قد لا يكون الشخص بالضرورة مرتاحا لها. ذلك ما نلمسه في الإشارة المصدرية التي تحدثت عن نظم أشعار من طرف أبي بكر بن زهر يتشوق فيها لأحد أبنائه الذي تركه صغير السن بالأندلس، مما يفسر أن مغادرة الخدمة بالقصر كانت مقيدة بشروط، فهي لا تتم إلا بإذن من الخليفة. انظر: ابن أبي زرع الفاسي، أبو الحسن علي بن عبد الله، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٣، ص. ٢٠٧.

(٣١) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٣٦.

(٣٢) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٣٦. ناقش العديد من الباحثين مسألة اهتمام يعقوب المنصور بالمذهب الظاهري ودعوته للأخذ بالقرآن والحديث، وحول مزيد من التفاصيل انظر: عبد الهادي أحمد الحسيسن، **مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي**، ج١، مطابع الشويخ، ديسبريس، تطوان، ١٩٨٢، ص١٨٣-٢٠٩، الدكتور حسين مؤنس، **وثائق المرابطين والموحدين**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص١٣١-١٣٤، محمد المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين**، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكدال الرباط، ٢٠٠٢، ص.١٧٥-١٧٨.

(٣٣) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٣٦.

(٣٤) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٣٦.

(٣٥) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٣٦.

(٣٦) ابن عبد المالك المراكشي، أبو عبد الله محمد، **الذيل والتكملة**، السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٦٥، ص.٦٢.

(٣٧) **الذيل والتكملة**، السفر٥، م س، ص.٦٣.

(٣٨) عبد الملك بن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، ص.١٦٠-١٦١.

(٣٩) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٣٠٤.

(٤٠) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٣٠٤.

(٤١) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٣٠٤.

(٤٢) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.١٧٥-١٧٦.

(٤٣) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.١٧٦.

(٤٤) ابن الآبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، **كتاب الحلة السيراء**، ج٢، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص.٢٤٢.

(٤٥) **الحلة السيراء**، ج٢، م س، ص.٢٤٢.

(٤٦) **الحلة السيراء**، ج٢، م س، ص.٢٤٢.

(٤٧) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، القسم الأول، م س، ص.٢٦.

(٤٨) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، القسم الأول، م س، ص.٢٧.

(٤٩) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، القسم الأول، م س، ص.٢٧.

(٥٠) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٢٧.

(٥١) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٢٨.

(٥٢) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، القسم الأول، م س، ص.٧١.

(٥٣) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٣٩٩.

(٥٤) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٣٩٩-٤٠٢.